

تفسير

لسنا بحاجة إلى كثير شرح لمبين خطر الفلسفة اليونانية في تاريخ الفكر ، فقد يكفي أن نذكر أنها فلسفة الشرق الأدنى منذ قديم الإسكندر ، وأنها فلسفة الغرب منذ استولى الرومان على بلاد اليونان في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ، فمرفوا نبوع المنطوقين وأخذوا عنهم أسباب الحضارة المادية والعقلية ومنها الفلسفة . واصطنع المفكرون المسيحيون هذه الفلسفة ، ثم اصطنعها المفكرون المسلمون . ودخلت المدارس في الشرق والغرب ، فكانت العقول وهيمنت على وضع العلوم .

أجل لقد وجد العقل مع الإنسان وبقي هو هو في جوهره ، واستخدمته الأمم الشرقية في الماضي السحيق فاستحدثت المصناعات والعلوم والفنون ، واقتنتها لليونان ، فأغنيتهم عن بذل الجهد والوقت في استكشافها بأنفسهم . وفضلا عن الفنون والعلوم ، نجد عند الأمم الشرقية القديمة قصصاً دينية وأفسكاراً في العلم والحياة ، إذا اعتبرنا موضوعها ومغزها وأيقاها حقيقة بأن تسمى فلسفية ، فقد نظروا في أسئلة المسائل ، مثل الوجود والتبني والتخير والشر والأصل والمصير ، فكان التوحيد والشرك ، وكانت الثنائية الفارسية ، وكانت وحدة الوجود عند الهنود ، وكان غير ذلك ، ولم تخرج الفلسفة فيما بعد عن هذه النظريات الكبرى ، بل قد نستطيع أن نجد لسلك فكرة يونانية مثيلة شرقية تقدمتها ، أو أصلاً قد تكون نبتت منه .

غير أننا إذا لحظنا صيغة القول ومنهج البحث عند الشرقيين ، لم ندع هذا الضرب من المعرفة والتفكير علماً وفلسفة ، بل دعواناً ما قبل العلم والفلسفة . فإن علومهم جميعاً ، من حساب وهندسة وفلك وغيرها ، لم تكن تعدو ملاحظات تجريبية أدت إليها حاجات عملية ، وفيها تعثر وتردد يدلان على أنه لم يكن لدى أصحابها أية فكرة عامة عن المبادئ والعلل والبرهان . هذا رأى العلماء المحدثين^(١) ؛ بل هذا رأى عالمنا الكبير

(١) « الكتب الهندية والبهلوية مصنوعات عملية مقتصرة على منظوق القواعد وشرح استعمال الجداول خالية عن البراهين وبيان العلل » الأستاذ نلينو في كتابه « علم الفلك تاريخه عند العرب » ص ٢١٤ طبع روما ١٩١١ . — وانظر التفصيل الوافي عند A. Rey, La science orientale : avant les Grecs Bulletin de la Société française de philosophie, janvier-fevrier 1931

البيروني^(١) الذي وعى العلم القديم كله ، وخبر الهند ووقف على « مقولاتها » فهو يقول :
« وكانوا (أي الهنود) يترفون اليونانيين بأن ما أعطوه من العلم أرجح من نصيبهم منه ...
كنت أقف من مفاهيمهم مقام التلميذ من الأستاذ لعمري فيما بينهم وقصوري عما هم فيه
من مواضعاتهم ، فلما امتدبت قليلاً لها أخذت أوقفهم على الملل وأشير إلى شيء من البراهين
وألوح لهم الطرق الحقيقية في الحسابات فاثاروا على متمجبين وعلى الاستفادة متهافتين ...
فكادوا يسبونني إلى السحر ... أقول : إن اليونانيين ... كانوا على مثل ما عايناه الهنود من
المقيدة ... (ولكنهم) فازوا بالفلاسفة ... فتحوا لهم الأصول ... ولم يك للهند أمثالهم
من يهذب العلوم فلا تكاد تجد لذلك لهم خاص " كلام إلا في غاية الاضطراب وسوء النظام .
إني ما أشبه ما في كتبهم من الحساب ونوع التعاليم إلا بصدف مخلوط بخزف ... والجنسان
عندهم سيمان إذ لا مثال لهم للمارج البرهان » .

أما الفلسفة فالشرقيون فيها متفاوتون . فقد يمكن القول عن البابليين والمصريين
والعبرانيين أنهم جهلوا الفلسفة ، بالرغم مما بلغ إليه علماءهم من ثقافة عالية ، ولم يحصلوا
فيما يلوح سوى معارف عامة جداً ومختلطة بالدين في الألوهية والنفس والعالم الآخر ، عاجوها
بالبداهة والخيال دون الاستدلال . وبالمكس قد زاول الفرس والهنود والصينيون النظر العقلي
المجرد إلى حد بعيد ، ولكنهم قصروا مهمة هذا النظر على تمحيص الدين وإصلاحه ؛ ولم
يوقفوا إلا بعض التوفيق في تبين ماهية الفلسفة وإقامتها علماً مستقلاً ، كان قصدهم الأول
النجاة من الشر ؛ فلم يتخذوا العلم غاية لذاته ، بل وسيلة لهذه النجاة ، وأرادوا أن يجاوزوا
العقل إلى نوع من الكشف يستغنى عن التحليل والتفصيل ؛ ويتصل بموضوعه اتصالاً
مباشراً أو يقف فيه . فكأنه كان مكتوباً لليونان أن يعبروا ؛ في وقت من الأوقات ؛ الهوة
الفاصلة بين التجربة والعلم بمعناه الصحيح ، أي معرفة الماهية والملة بالحد والبرهان ؛ ويضموا
الفلسفة علماً كاملاً قائماً برأسه ؛ ويقنعوا بها لا يتطلعون إلى كشف أو إشراق ؛ وإن تطلمعوا
فهموه كشفاً عقلياً ، إلا أن يتأثر بعضهم بالشرق في أواخر عهدهم بالفلسف ، فيمدل عن
العقل إلى الذوق ، كما وقع للأفلاطونية الجديدة . في هذه الحدود ، يصح القول أن الشرق
لم يعلم اليونان ، أي لم يلقنهم مذهباً أو منهجاً ، ولكنه حفزهم إلى التفكير بما أدى إليهم
من مواد جمعها أثناء قرون طويلة ، فقاموا يعالجونها على نحو علمي . لم يفلحوا دفعة واحدة
— وهذا الكتاب تاريخ محاولاتهم — ولكنهم ساروا في طريقهم ، وأعملوا العقل في
نشاط وجرأة عجيبين ، فكانوا أساندة الإنسانية .

(١) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (٣٥١ - ٤٤٠ هـ = ٩٦٢ - ١٠٤٨ م) في كتابه
« تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » ص ١٢ - ١٣ طبع ليبسيك ١٩٢٥ .

